الفصل الرابع
منهج الشربيني في بيان الإعجاز القرآني

- تمهيد.
- المبحث الأول: علم المعاني.
- المبحث الثاني: علم البيان.
- المبحث الثالث: علم البديع والإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين؛ ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وأيدهم بآيات تؤكد صدق نبوتهم ورسالتهم، وأنهم مصطفون من الله عز وجل، وكانت آياتهم ومعجزاتهم من جنس ما برع به قومهم، فجعل الله معجزات الرسل والأنبياء السابقين حسية، وجعل معجزة الرسول محمد ﷺ عقلية، لفرط ذكاء العرب وكمال أفهامهم وفضلهم على من تقدمهم[1]. فأنزل الله القرآن الكريم على رسوله ﷺ، فكان حجته التي تحدى بها العرب أن يأتوا بسورة من مثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]، بل تحدى الإنس والجن جميعًا أن يتظاهروا على الإتيان بمثله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولما قامت الفتوحات الإسلامية دخلت في الإسلام أمم من غير العرب، فامتزجت ثقافاتها بثقافات المسلمين، وأخذ الإسلام يتعرض لحركة طعن وتشكيك من أعدائه الذين هوت دولهم وطمست وثنيتهم بنور الإسلام، فكان طبيعيًا أن يتوجهوا بطعنهم إلى القرآن؛ لأنه منبع هذا الدين، وبه نهضت الأمة، وعليه قامت أسسها، فأرادوا أن ينقضوا معجزة هذا الدين[2].

فالملحدون من أصحاب الديانات السابقة، قد أسلموا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، فأذعنت لدين الحق رقابهم، ولم تذعن نفوسهم، فلم يلبثوا في المجتمع

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٢٥٢).

(٢) ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن ٢٠٢ .

المسلم، ولم يستقروا أن نهضوا لأصل هذا الدين يريدون نقضه، فأعملوا معاولهم طعنًا في كتاب الله، وقد لخص لنا ابن قتيبة مطاعنهم بقوله: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولَغَوا فيه وهجروا، واتبعوا ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرَّفوا الكلام عن مواضعه، وعدوله عن سبله. ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة واللحن، وفساد النظم والاختلاف، وأَدْلَوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغُمْر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور»[(١)].

فهبَّ علماء الأمة يردُّون هجماتهم، ويدحضون حججهم، وذلك ببيان الإعجاز القرآني، فنشأت مدرستان في الإعجاز القرآني: المعتزلة، والأشاعرة، وكان رأس المدرسة الأولى إبراهيم بن سيار النظام (ت٢٣١هـ) صاحب فكرة «الصَّرْفَة» الذي حصر معجزة القرآن في صَرْفِ العرب عن معارضته، وفيما فيه من الأخبار لكل غيب مضى وكل غيب سيأتي[(٢)]، ثم أتى تلميذه الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وقال بأن القرآن معجز بالصَّرْفَةِ وبالنظم[(٣)]، وكان الجاحظ أول من كتب في إعجاز القرآن من الناحية البيانية لبيان إعجازه الذاتي[(٤)]، ثم أتى الرُّمَّاني (ت٣٨٤هـ) ورأى أن إعجاز القرآن يكمن في ترك المعارضة، مع توافر الدواعي، وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، وفي البلاغة، وفي الأخبار

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٢٢، وينظر: منهج الزمخشري ٢٠٢-٢٠٥، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ١٤ .

(٢) ينظر: الآلوسي مفسرًا ٢٦١، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ٥٠-٥٣، دراسات حول القرآن الكريم ١٠١ .

(٣) ينظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ٥٣-٥٩، الآلوسي مفسرًا ٢٦١ .

(٤) ينظر: المعجزة الكبرى -القرآن ٨٢ .

الصادقة عن الأمور المستقبلية[1]، ثم أعقبه الخطابي (ت٣٨٥هـ) الذي رأى أن

(١) ينظر: الآلوسي مفسرًا ٢٦٢، منهج الزمخشري ٢٠٧، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ٦٩-٧٥ قال القائلون بـ(الصَّرْفَةِ): «إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله»، وترجع هذه الفكرة في جذورها إلى الأفكار الهندية التي دخلت على عهد أبي جعفر المنصور، والتي تقول: (إن الناس قد صُرِفُوا عن محاكاة كتابهم المقدس)، وأن رواج هذه الفكرة يؤدي إلى أمرين: أولهما: أن القرآن الكريم ليس في درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته ولا تعجز القدرة البشرية عن أن تأتي بمثله، فالعجز عن محاكاته ليس من صفات القرآن الذاتية.
وثانيهما: الحكم عليه بأنه لا يزيد على كلام الناس في شيء من البلاغة أو المعاني. ومهما يكن من بطلان فكرة (الصَّرْفَةِ)، فقد أدت إلى إنشاء علوم البلاغة في ظل القرآن، فاتجه الكاتبون إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المبين، المنزل من عند الله الحكيم قرآنًا عربيًّا، فكان هذا الباطل سببًا في خير كثير، وكما يقول المثل السائر (رب ضارة نافعة)، فقد نتج عن هذا الباطل دفاع حكيم، ولدت منه علوم البلاغة العربية، فكما تولد بسبب الخطأ في تلاوة آية (علم النحو)، تولدت بسبب القول بالصرفة (علوم البلاغة العربية)، فإن أكثر ما كتب الأولون في البلاغة والفصاحة كان في ظل القرآن، ومحاولة لبيان إعجازه.
إن أول ما كتب في إعجاز القرآن من ناحية البيان قد تزامن مع القول بالصَّرْفَةِ، وأول من عرف أنه تصدى للكلام في إعجاز النظم القرآني هو الجاحظ تلميذ النظام الذي أنكر على النظام قوله، وعابه في منهاجه الفكري، حيث كان يظن الظن، ثم يجعله أصلًا يجري عليه القياس، ثم يصحح القياس بالمنطق والعيب في أصل القول الذي بنى عليه الفكرة، لا في الأقيسة. ولما كتب الجاحظ كتابه في (نظم القرآن)، وجدنا الباقلاني يعيبه، ليدفع التسليم له بالسبق، وبسبب تعصبه لمذهبه الأشعري، استهان الباقلاني بكلام الجاحظ في إعجاز القرآن، بل إنه تحامل عليه في كتاباته كلها، يقول الباقلاني الأشعري في الجاحظ المعتزلي: «كذلك يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ فيه، والباب الذي لا يذهب عنه، وأنت تجد قومًا يرون كلامه قريبًا، ومنهاجه معيبًا، ونطاق قوله ضيقًا... فإذا أردت أن تحقق ذلك فانظر في كتبه في (نظم القرآن) وفي (الرد على النصارى) وفي (خبر الواحد) وغير ذلك مما يجري هذا المجرى». لقد جاء (نظم القرآن) للجاحظ ردًّا عمليًّا على كلام النظام الذي أدخله من الهند، وهو مذهب (الصرفة)، وتوالت بعده المؤلفات في إعجاز النظم القرآني، فكان منها كتاب «إعجاز القرآن» للواسطي (ت٣٠٦هـ) الذي أصل الأصول المشتقة من كلام العرب، ونظمها وطبقها على القرآن، وثبت في التطبيق أنه أعلاها. وهذا الكتاب يعد أصلا يبنى عليه، فقد شرحه الجرجاني (ت٤٧١هـ) شرحًا مطولًا أسماه (المعتضد)، وبنى على ما وضع الواسطي كتابه «دلائل الإعجاز» ينظر: المعجزة الكبرى للقرآن ٧٩-٨٨ .

إعجاز القرآن يكمن في أمرين: «الوجه الأول في الإعجاز القرآني هو الإحاطة الإلهية بأسرار اللغة، حتى جاء القرآن معجزًا لفظًا ومعنى ونظمًا. والوجه الثاني عنده، هو ما للقرآن من أثر نفسي»[(١)]، وجاء من بعده القاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ) الذي ذهب إلى أن القرآن معجزٌ بزوال الاختلاف والتناقض عنه، على ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وأنه معجز بتضمنه الإخبار عن الغيوب[(٢)].

وأما المدرسة الثانية (مدرسة الأشاعرة) فقد انبرت للرد على من قال بـ(الصَّرْفَةِ) من المعتزلة، وتفنيد أقوالهم وحججهم فيها، وكان الباقلاني (ت٤٠٣هـ) إمام المدرسة في الرد عليهم، ورأى أن إعجاز القرآن يكمن في الإخبار عن الغيوب، وفي أمية الرسول ﷺ، وأن القرآن بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[(٣)]. ثم كان من بعده عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) صاحب نظرية (النظم)، الذي أتقنها في كتابه «دلائل الإعجاز» نظرية وتطبيقًا، وهي ترد إعجاز القرآن في النظم والتأليف إلى خصائص في أسلوبه تقف وراء تألق لفظه وبلاغة معناه[(٤)]. ويبقى الباقلاني والجرجاني أبرز علمين في مدرسة الأشاعرة، وقد أثرًا فيمن جاء بعدهما، فالباقلاني عُني بالجانب الكلامي من النظرية أكثر من عنايته بالجانب التطبيقي، بينما شُغِل الجرجاني بالجانب البلاغي التطبيقي من النظرية، ولم يفصِّل في الجانب الكلامي.

---

(١) الآلوسي مفسرًا ٢٦٢، وينظر: منهج الزمخشري ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ٧٩-٩٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه ٩٦-١١٨، الآلوسي مفسرًا ٢٦٢.

(٤) ينظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ١٢١-١٥٤، الآلوسي مفسرًا ٢٦٣، منهج الزمخشري ٢١١-٢١٥، أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٦٠-٦٨.

ثم جاء الزمخشري (ت٥٣٨هـ) الذي اعتمد -على الرغم من اعتزاله- نظرية الجرجاني في (النظم) واتخذها أساسًا في تفسير كتاب الله وتحليل آياته، فكان بذلك أول من يطبق نظرية (النظم) تطبيقًا عمليًا على نطاق واسع، فكانت عنايته في هذا التفسير تنصبُّ أكثر ما تنصب على بيان نسق (النظم) أو الأسلوب في القرآن، وبيان تعلق الآيات بعضها ببعض، للكشف عن جميع وجوه النظم، أو بعبارة أخرى للكشف عن علاقة النحو بالمعنى[١].

ثم جاء من بعده الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) الذي اهتم ببيان التناسب بين آيات القرآن وسوره، أو ببيان الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم[٢]، حيث عدَّ الرازي هذا الموضوع أهم أوجه الإعجاز القرآني[٣]. كانت هذه خلاصة الآراء في الإعجاز القرآني عند المتقدمين.

اعتمد الشربيني قول الأشاعرة في رد الإعجاز القرآني إلى نظمه وتأليفه، يقول في الآية الكريمة ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]: «فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة، لا يشبه كلام الخلق، ولو كان مخلوقًا لأتوا بمثله»[٤]، وغلَّب الشربيني قول الأشاعرة على قول المعتزلة في الإعجاز القرآني، يقول: «وفي وجه كون القرآن

---

(١) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٦٨-٧٢، عبد القاهر الجرجاني، للدكتور أحمد مطلوب ٨٥، البلاغة تطور وتاريخ ٢٢٤-٢٧١، الدراسات النحوية والبلاغية عند الزمخشري ٢٣٥-٢٣٨ .

(٢) ينظر: حول (علم التناسب) المبحث الخامس من فصل علوم القرآن ضمن هذا البحث حيث تكلمت حوله بإسهاب.

(٣) ينظر الرازي مفسرًا ٢٣٧-٢٤٠ .

(٤) السراج المنير (٢/ ٣٣٥).

معجزًا قولان؛ أحدهما: أنه معجزٌ في نفسه. والثاني: أنه ليس في نفسه معجزًا، إلا أنه تعالى لما صَرَفَ دواعيهم عن الإتيان بمعارضته، وكانت الدواعي متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة، يكون نقضًا للعادة، فيكون معجزًا، والقول الأول أظهر»[١]، فالقرآن معجزٌ بفصاحته التي غلبت فصاحة كل بليغ، مع كثرتهم، وإفراطهم في المضادة، وتهالكهم على المغالبة[٢].

ومن إعجاز القرآن أُمِيَّةُ الرسول ﷺ، فقد بعثه الله رسولًا وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتابٍ، وكانت هذه الخلة إحدى آياته المعجزة، لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظومًا، تارةً بعد أخرى، بالنظم الذي أنزِلَ عليه، فلم يُغيِّره، ولم يُبَدِّلْ ألفاظه، وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبةً ثم أعادها زاد فيها ونقص، فحفظه الله عز وجل على نبيه كما أنزله، وأبانه من سائر من بعثه إليهم بهذه الآية التي باين بينه وبينهم بها، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، أي: لقالوا: إنه وجد هذه الأقاصيص مكتوبةً فحفظها من الكتب[٣]. وقد قال الشربيني في تفسير الآية الكريمة ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] أن الضمير في ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يرجع إلى النبي ﷺ أي: فليأتِ إنسان يساوي محمدًا ﷺ في عدم القراءة والكتابة والاشتغال بالعلوم، بسورة تساوي هذه السورة، وحيث ظهر العجز ظهر المُعْجِزُ، فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزةٌ، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد ﷺ في عدم التعلم والتتلمذ معجز، وأن الخلق وإن تتلمذوا وتعلموا وطالعوا

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٣٣٥، ٤٤٥).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٤)، (٢/ ١٠).

(٣) لسان العرب (أمم).

وتفكروا لا يستطيعون أن يعارضوا القرآن[١].

وقد تحدى رسول الله ﷺ الخلق بالقرآن على مراتب، وفي تفسير الشربيني لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨] بيَّن هذه المراتب بقوله: «مراتب تحدي رسول الله ﷺ بالقرآن ستة:

أولها: أنه تحداهم بكل القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثانيها: أنه تحدَّاهم بعشر سور، فقال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣].

ثالثها: أنه تحداهم بسورة واحدة، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

رابعها: أنه تحداهم بـ(حديث مثله)[٢].

خامسها: (أنه)[٣] في تلك المراتب الأربعة كان يطلب منهم أن يأتي بالمعارضة رجل يساوي رسول الله ﷺ في عدم التلمذة والتعلم، ثم في هذه السورة[٤] طلب منهم معارضة سورة واحدة من أي إنسان سواء تعلَّم العلوم أم لم يتعلمها.

---

(١) ينظر: السراج المنير (٢/ ٢٠)، الكشاف (١/ ٢٤١-٢٤٣)، طبعة الحلبي.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤].

(٣) في نص التفسير (أن)، والسياق يقضي (أنه).

(٤) يشير إلى سورة (يونس) الآية ٣٨ .

سادسها: (أنه)[١] في المراتب المتقدمة تحدَّى (واحدًا)[٢] من الخلق، وفي هذه المرتبة تحدَّى جميعهم، وجوَّزَ أن يستعين البعض بالبعض في الإتيان بهذه المعارضة، كما قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٨]. هاهنا آخر المراتب، فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات أن القرآن معجز»[٣].

إن من المشتغلين بالإعجاز القرآني، من جعل من وجوه إعجازه: (الإعجاز بذكر الغيب)، والغيب المذكور في القرآن نوعان؛ أحدهما: غيبٌ مضى، وهو جزءٌ من القصص، والثاني: غيب سيقع في المستقبل، وكلاهما إعجازٌ، ووجه الإعجاز في الغيب الماضي وقصصه، أن النبي ﷺ نشأ أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب، حتى يعلم بالتلقين علمهم، وكان قومه أُميين، لا يسود فيهم علمٌ من أي طريق كان، إلا أن يكون علم الفطرة والبيان. وتجد في القرآن إخبارًا عن أمور قابلة، وتقع كما أخبر، وصدق في ذلك كله، وذلك لا يكون إلا من عند الله، ولا يمكن أن يكون بالتقدير الشخصي أو الحدسي، فإن ذلك يصدق أحيانًا، ويكذب أحيانًا، والأمر هنا كله صدقٌ، وكان دليلًا على أنه من عند الله العليم الخبير، اللطيف البصير، أودعه كتابه الكريم[٤].

وكان الشربيني واحدًا من المفسرين الذين عُنُوا بما في القرآن من ذكرٍ للغيب، فقد أخذ عن الزمخشري قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]: «الإتيان بالسين الدال على

---

(١) في نص التفسير (أن)، والسياق يقضي (أنه).

(٢) في نص المطبوع (واحد) وما أثبته يقتضيه السياق.

(٣) السراج المنير (٢/ ٢٠).

(٤) ينظر: المعجزة الكبرى -القرآن ٣٦٣-٣٦٦ .

الاستقبال من الإخبار بالغيب، فإن قيل: ما فائدة الإخبار بذلك قبل وقوعه؟ أجيب بأن فائدته توطين النفس وإعداد الجواب، فإن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد عن الاضطراب إذا وقع، وقبل الرمي يُرَاشُ السهم»[(١)].

وقد نصَّ الشربيني على أن الإخبار عن الغيب من دلائل النبوة ومعجزاتها، يقول في الآية الكريمة ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢]: «في هذه الآية إخبار عن أمر يحصل في المستقبل، وقد وقع خبره على موافقته، فكان هذا إخبارًا بالغيب، فكان معجزة»[(٢)].

ويقول في الآية الكريمة ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢]: «أن هذا النبأ غيب، لأنه ﷺ ما طالع الكتب، ولا تتلمذ لأحد، ولا كانت البلدة بلدة العلماء، وإتيانه ﷺ بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه تحريف ولا غلط، من غير مطالعة ولا تعلم، ومن غير أن يقال إنه حاضر معهم، لا بد وأن يكون مُعجزًا»[(٣)].

ولما كان الزمخشري أكثر المفسرين عناية بدراسة نظم القرآن وتأليفه، لبيان إعجازه، لأن التحدِّي وقع عليه، فقد نهج الشربيني منهجه في بيان وجوه الإعجاز القرآني في نظمه وتأليفه، بل هو يرى أنه «ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلًا»[(٤)]، ومن ذلك أنه أخذ عن الزمخشري قوله

---

(١) السراج المنير (١/ ٩٩)، وينظر: الكشاف (١/ ٣١٧)، طبعة الحلبي.

(٢) السراج المنير (١/ ١٩٩).

(٣) السراج المنير (٢/ ١٤٠)، وينظر: الكشاف (٢/ ٣٤٥-٣٤٦) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/ ٣٨٠)، (٢/ ٦٢)، (٣/ ١٥٥)، (٤/ ٦٠٨).

(٤) السراج المنير (٣/ ١٤٦).

في تفسير الآية الكريمة ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١]: «فإن قيل: هلا جُزم المعطوف في قوله: ﴿لا ينصرون﴾؟ أجيب: بأنه عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، والفرق بين رفعه وجزمه في المعنى: أنه لو جُزِم لكان نفي النصر مقيدًا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعدًا مطلقًا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها أو أُبشركم بها، بعد التولية، أنه مخذولون، منتفٍ عنهم النصر والقوة، لا ينهضون بعدها بجناح، ولا يستقيم لهم أمر»[(١)].

وأخذ عن الزمخشري قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥]: «فإن قيل: لمَ حذف العاطف من قوله: ﴿قَالَ﴾، ولم يقل: (فقال)، كما في قصة نوح[(٢)]؟ أُجيب: بأن على تقدير سؤال سائلٍ قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال: يا قوم، وقيل: إن نوحًا كان مواظبًا على دعوته قومه، غير متوانٍ فيها، لأن (الفاء) تدل على التعقيب. وأما هود فلم يكن كذلك، بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء، فأخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ﴾»[(٣)].

وعني أيضًا ببيان سر الإعجاز في استعمال كلمة بدل أخرى في النظم

---

(١) السراج المنير (١/ ٢٤٠)، وينظر: الكشاف (١/ ٤٥٥) طبعة الحلبي. فالشربيني في مواضع كثيرة من تفسيره اقتبس كلام الزمخشري، ومحاوراته في بيان الإعجاز القرآني في نظمه وتأليفه، من دون الإشارة إليه أو إلى تفسيره.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٥٩].

(٣) السراج المنير (١/ ٤٨٥-٤٨٦)، وينظر: الكشاف (٢/ ٨٦-٨٧) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/ ٢٧٦، ٢٥٣)، (٣/ ١٩٣).

القرآني، فقد أخذ عن الزمخشري قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]: «فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ ولم يقل (مُرضع)؟، أُجيب: بأن (المرضعة) هي التي في حالة الإرضاع ملقمةً ثديها للطفل، و(المرضع) التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال (وصفها به)[1] فقال: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ ليدل ذلك على الهول إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها، تنزعه من فيه لما يلحقها من الدهشة»[2].

ويبين أحيانًا لماذا استعملت صيغة دون أخرى؟ فقد أخذ عن الزمخشري قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨]: «فإن قيل: كيف طابق قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فإن الأول في ذكر شأن الفاعل لا الفعل، فكان المطابق له (وما آمنوا)؟، أُجيب: بأنه عدل إلى ذلك لرد كلامهم بأبلغ وجه وآكده، لأن إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان، ولذلك أكَّد النفي بالباء، ونظيره قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، هو أبلغ من قولك: (وما يُخرجون منها). وأطلق (الإيمان) على معنى: أنهم ليسوا من الإيمان في شيء، ويحتمل أن يُقَيَّدَ ما قيَّدُوا به، وهو قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ لأن ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ جوابه، والآية تدل على أن من ادعى الإيمان، وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد، لم يكن مؤمنًا، لأن من تفوه بالشهادتين فارغ القلب عما يوافقه

---

(١) ما بين القوسين مأخوذ من قول الزمخشري في (الكشاف)، وهو ما يقتضيه السياق، وقد أثبته بدلا من (وضعها) الذي ورد في (السراج المنير).

(٢) السراج المنير (٢/٥٣٦)، وينظر: الكشاف (٣/٤) الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/١٤٧)، (٢/٤٥٦)، (٣/١٩)، (٤/١٣٠).

أو ينافيه[١] لم يكن مؤمنًا»[٢].

وعُنِيَ في بعض المواطن ببيان سبب اختلاف التعبير في آيتين متقاربتين في الأسلوب والمعنى، يقول في الآية الكريمة ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٨]: «لِمَ قال نوح: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢] وقال هود: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] بصيغة اسم الفاعل؟ أُجيب: بأن صيغة الفعل تدل على تجدُّده ساعة بعد ساعة، وكان نوح يدعو قومه ليلًا ونهارًا، كما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾، وأما هود فلم يكن كذلك، بل كان يدعوهم وقتًا دون وقت، فلهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾»[٣].

وهو في بعض الأحيان يحلل الآية تحليلًا بلاغيًا رائعًا مترسمًا في ذلك طريقة الزمخشري، يقول في الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]: «في هذه الآية أنواع من التأكيد والتشدد على طلب الحج، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: أنه حقٌّ واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهدته، ومنها أنه ذكر (الناس) ثم أبدل منه (من استطاع إليه سبيلًا)، وفيه ضربان من التوكيد؛ أحدهما: أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له. والثاني: أن الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، إيرادٌ له في صورتين مختلفتين،

---

(١) الضمير البارز في قوله (يوافقه أو ينافيه) عائد على (الإيمان).

(٢) السراج المنير (١/ ٢٢)، وينظر: الكشاف (١/ ١٦٩-١٧٠) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/ ١٠٠، ٢٢٩، ٣٨٤)، (٣/ ١٨).

(٣) السراج المنير (١/ ٤٨٦)، وينظر كذلك على سبيل المثال: ٤٨٤، (٢/ ١٨٢)، (٣/ ١٣٦)، (٤/ ٤٨٤).

ومنها ذكر الاستغناء، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان، ومنها قوله تعالى: ﴿عن العالمين﴾، ولم يقل: (عنه)، وفيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء ولا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدلَّ على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه»[(١)].

ونهج الشربيني منهج الزمخشري في محاوراته لدفع ما قد يظنه بعضهم تناقضًا في التعبير القرآني، فقد أخذ عنه قوله في الآية الكريمة ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣]: «فإن قيل: هذا مناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢]، أُجيب: بأنه قللهم أولًا حتى اجترءوا عليهم، فلما لاقوهم كثروا إمدادًا من الله تعالى للمؤمنين في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين»[(٢)].

وهناك موضوعات كثيرة، تتعلق بالإعجاز البلاغي للقرآن، تناولها الشربيني في تفسيره وجدتُ من المناسب أن أوردها مرتَّبةً وفق علوم البلاغة: المعاني، والبيان، والبديع.

---

(١) السراج المنير (١/ ٢٣٥)، وينظر: الكشاف (١/ ٤٤٨-٤٤٩) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/ ٤٥٧-٤٥٨، ٦٠٩)، (٢/ ٣٠٣)، (٣/ ٥٧٥)، (٤/ ١٠٩).

(٢) السراج المنير (١/ ٢٠٠)، وينظر: الكشاف (١/ ٤١٥) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/ ٢٢٤)، (٢/ ٢١٣)، (٣/ ٢)، (٤/ ٤٦٦).

obeikandl.com

المبحث الأول
علم المعاني

وهو علم تُعرفُ به أحوال اللفظ العربي، والتي بها يُطابق مقتضى الحال[١].
ولا بد لمن يتصدى لتفسير كتاب الله العزيز من الإلمام به، للوقوف على إعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب[٢].

والموضوعات التي تناولها الشربيني، ولها تعلق بعلم المعاني، يمكن تصنيفها على النحو الآتي:

أولًا: المعاني المجازية التي خرجت إليها أساليب الطلب:

١- **الأمر**: ومعناه لغةً: طلب إيجاد الفعل[٣]، واصطلاحًا: طلب إيجاد الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام. فإذا لم يكن استعلاء أو إلزامًا كان مستعملًا استعمالًا مجازيًّا[٤]، ومن المعاني المجازية التي أفادها أسلوب الأمر في القرآن الكريم، والتي ذكرها الشربيني، وكان قد سبق إليها كثير من المفسرين:

(أ) التهديد: يقول في الآية الكريمة ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]: «التهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد»[٥].

(ب) طلب المعونة: يقول في الآية الكريمة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]: «بيان للمعونة المطلوبة، فكأنه قال: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدنا»[٦].

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة (١/ ١٢)، التلخيص في علوم البلاغة ٣٧ .
(٢) ينظر: علوم البلاغة ٤٢-٤٣ .
(٣) ينظر: لسان العرب (أمر).
(٤) ينظر: مفتاح العلوم ١٥٢ .
(٥) السراج المنير (١/ ٤٥١)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (٣/ ١٦٩).
(٦) السراج المنير (١/ ١١).

(ج) الخبر: يقول في الآية الكريمة ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]: «أمر بمعنى الخبر، معناه: فندعه في طغيانه ونمهله في كفره، بالبسط في الآثار، والسعة في الديار، والطول في الأعمار، وإنفاقها فيما يستلذ به من الأوزار»[١].

٢- **الاستفهام**: ومعناه لغةً: طلب الفهم[٢]، وكذلك هو في اصطلاح البلاغيين[٣].

وإذا كان المُستفهم عالمًا بما يَستفهم عنه، مُستغنيًا عن طلب الإفهام، كان الاستفهام مستعملًا استعمالًا مجازيًّا[٤]. ومن المعاني المجازية التي أفادها أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، والتي ذكرها الشربيني:

(أ) التعجب: يقول في الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١]: «﴿أَلَمْ تَرَ﴾: استفهام تعجب، أي: اعجبْ»[٥].

(ب) النفي: يقول في الآية الكريمة ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]: «لفظه استفهام، ومعناه الجحد، أي: لا يهديهم الله، لما علم من تصميمهم على كفرهم، بأنهم كفروا بعد إيمانهم»[٦].

(ج) التوبيخ والإنكار: يقول في الآية الكريمة ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦﴾ [الزخرف: ١٦]: «استفهام توبيخ وإنكار، أي: فلم يقدر

---

(١) السراج المنير (٢/ ٤٣٢)، وينظر: الكشاف (٢/ ٥٢١) طبعة الحلبي.
(٢) ينظر: لسان العرب (فهم).
(٣) ينظر: عروس الأفراح -شروح التلخيص (٢/ ٢٤٦).
(٤) ينظر: حسن التوسل إلى صناعة الترسل ٢٣١ .
(٥) السراج المنير (٤/ ٥٨٧).
(٦) السراج المنير (١/ ٢٣٠).

بعد التكلف والتعب على غير البنات التي هي أبغض الجزأين إليكم، ثم عطف على قوله تعالى: ﴿اتَّخَذَ﴾ ليكون منفيًا على أبلغ وجه لكونه في حيز الإنكار»[١].

(د) التنبيه: يقول في الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥]: «في هذا الاستفهام تنبيه على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية»[٢].

ومن المعاني الأخرى التي خرج إليها أسلوب الاستفهام، وذكرها الشربيني: التقرير[٣]، والتبكيت[٤]، والتشويق[٥]، والتقريع[٦]، وغيرها.

٣- النداء: ومعناه لغةً: الصَّوْتُ، و(ناداه) و(نادى به) بمعنى: صاح به. ومعناه اصطلاحًا: (طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروفٍ مخصوصة)[٧]. وإذا استعمل النداء في غير طلب الإقبال، كان مُستعملًا استعمالًا مجازيًا، ومن المعاني المجازية التي أفادها أسلوب النداء في القرآن الكريم، والتي ذكرها الشربيني:

(أ) التلهف: يقول في الآية الكريمة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]: «أي: يا ندامتنا، والحسرة: التلهف على الشيء الفائت وشدة التألم، ونداؤها مجاز، أي: هذا أوانك فاحضري»[٨].

---

(١) السراج المنير (٣/ ٥٥٧).
(٢) السراج المنير (١/ ٣٣٥).
(٣) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ١٥٤).
(٤) ينظر: المصدر نفسه (٤/ ٤٩٢).
(٥) ينظر: المصدر نفسه (١/ ١٥٧).
(٦) ينظر: المصدر نفسه (٢/ ٦٥٤).
(٧) عروس الأفراح -شروح التلخيص (٢/ ٣٣٣).
(٨) السراج المنير (١/ ٤١٧)، وينظر: الكتاب (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(ب) التكريم والتنويه بالفضل: يقول في الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]: «جعل الله تعالى نداء تنبيه ﷺ بـ(النبي) و(الرسول) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وترك نداءه باسمه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾ [ص: ٢٦]، كرامة وتشريفًا وتنويهًا بفضله»[(١)].

ثانيًا: أحوال الجملة العربية:

١- الحذف: «وهو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسِّحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبنْ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنتظر»[(٢)]، وإنك قد ترى الجمالَ والروعة تتجلى في الكلام إذا أنت حذفت أحد ركني الجملة أو شيئًا من متعلقاتها، وإذا أبرزت ذلك المحذوف صار الكلام غثًّا لا صلة بينه وبين ما كان عليه أولًا[(٣)]. وللحذف أغراض بلاغية، أورد الشربيني قسمًا منها، ومن هذه الأغراض:

(أ) المبالغة في التشبيه: يقول في الآية الكريمة ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]: «إن الدرجات متفاوتة، فهو تشبيه بليغ بحذف الأداة، أي: هم مثل الدرجات في التفاوت»[(٤)].

---

(١) السراج المنير (٣/ ٢١٧).
(٢) دلائل الإعجاز ١٧٨ .
(٣) ينظر: علوم البلاغة ٨٢ .
(٤) السراج المنير (١/ ٢٦٢).

(ب) الإعلام بأن الحكم واحدٌ: يقول في الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠]: «(رجسٌ) أي: خبيث مستقذر، وإنما وَحَّد الخبر للنص على الخمر، والإعلام بأن أخبار الثلاثة حذفت وقدرت لأنها أهل لأن يقال في كل واحدة منها على حدتها كذلك، ولا يكفي عنها خبر واحد على سبيل الجمع»[(١)].

(ج) التعظيم: يقول الشربيني في الآية الكريمة ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]: «حذف المُبَشَّرَ به للتعظيم، فكأنه قيل: وبشرهم بما يَجِلُّ عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام»[(٢)].

ومن أقسام الحذف: (الحذف المقابلي)[(٣)]، وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فُيحذفُ من كل واحدٍ منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه[(٤)]، وحذا الشربيني حذو البقاعي في تسميته بـ(الاحتباك)[(٥)]. يقول في الآية الكريمة ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]: «الآية من (الاحتباك)، لأنه نفى أولًا إدراك الشمس لقوتها القمر، ففيه دليل على ما حذف من الثاني من نفي إدراك (القمر للشمس)[(٦)] أي: فيغلبها وإن كان يوجد في النهار، لكن من غير سلطنة فيه بخلاف الشمس فإنها لا تكون في الليل أصلًا، ونفى ثانيًا سبق الليل والنهار، وفيه دليل على حذف سبق النهار الليل

---

(١) السراج المنير (١/ ٣٩٥).

(٢) السراج المُنير (١/ ٦٥٤).

(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (١/ ٥٥-٥٧).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٢٩)، التعريفات ٣٢، السراج المنير (٣/ ١٧٤).

(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٣١-١٣٢)، معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/ ٢٤٢-٢٤٣)، وتسميته بـ(الاحتباك) يريدون به إحكام نسج الكلام، من (حبكت الثوب) إذا أحكمت نسجه، وكل شيء أحكمته وأحسنت عمله، فقد أحبكته. ينظر: لسان العرب (حبك).

(٦) في الأصل المطبوع (إدراك الشمس للقمر) وما أثبته هو ما يقتضيه السياق.

أولًا كما قدرته»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: ٦-٩] يقول: «الآية من الاحتباك، ذكر العيشة أولًا دليل على حذفها ثانيًا، وذكر الأم ثانيًا دليل على حذفها أولًا»[٢].

٢- **التعريف والتنكير**: إن تعريف بعض أجزاء الجملة، وتنكير بعضها، إنما يكون لأغراض يريدها المتكلم، منها: (التعظيم) يقول في الآية الكريمة ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]: «كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، حيث جعل الشيء محل ضده، وعرَّف (القصاص) ونكَّرَ (الحياة) ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعًا من الحياة عظيمًا، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة»[٣]، ويقول في الآية الكريمة ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]: «نكَّرَ (الغد) لتعظيمه وإبهام أمره، كأنه قال: الغد لا تعرف كميته لعظمته»[٤].

٣- **الإضمار والإظهار**: ويعدُّ هذا من باب خروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر، فيوضع المضمر موضع المظهر، وقد يعكس الأمر فيوضع المظهر موضع المضمر، وذلك لأغراض وفوائد بلاغية[٥]. يقول الشربيني في الآية الكريمة ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤﴾ [الأنفال: ١٤]: «﴿ذَٰلِكُمْ﴾ خطاب للكفرة... أي: ذلكم الذي عجل لكم ببدر من القتل

---

(١) السراج المنير (٣/ ٣٥١).
(٢) السراج المنير (٤/ ٥٨٠)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (٢/ ٢٨١)، (٣/ ٥٣٤)، (٤/ ٤٥٤).
(٣) السراج المنير (١/ ١١٦).
(٤) السراج المنير (٤/ ٢٥٦).
(٥) ينظر: الإيضاح (١/ ٦٨).

والأسر، ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلًا، ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ آجلًا في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب للعاجل والآجل»[١]. ويقول في الآية الكريمة ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]: «﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: قتلًا أو أسرًا أو غنيمة أو هزيمة، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أي: ثواب جزيل عند الله تعالى يجازيهم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: لا يترك ثوابهم. وأظهر موضع الإضمار تنبيهًا على أن الجهاد إحسان»[٢].

٤- **الوصل والاستئناف**: ويسمى أيضًا (الفصل والوصل)، وهو العلم بمواضع العطف والاستئناف، للاهتداء إلى إيقاع حروف العطف في مواقعها، أو تركها عند عدم الحاجة إليها[٣]، فالوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصلُ تركه[٤].

وقد نهج الشربيني منهج الزمخشري في بيان النواحي البلاغية للوصل أو الاستئناف في الكلام، فقد أخذ عنه قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٧]: «فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بعد قوله: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؟ أُجيب: بأن فائدته أنه أُخْرِجَ مخرج الاستئناف والتأكيد كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال: هم فيها خالدون، لا يضعنون عنها ولا يموتون»[٥].

---

(١) السراج المنير (١/ ٥٦١).
(٢) ينظر: السراج المنير (١/ ٦٦٠).
(٣) ينظر: علوم البلاغة ١٤٧-١٤٨ .
(٤) ينظر: الإيضاح (١/ ١٤٧-١٤٨)، التلخيص ١٧٥ .
(٥) السراج المنير (١/ ٣٣٩)، وينظر: الكشاف (١/ ٤٥٤) طبعة الحلبي.

وقد أخذ الشربيني عن الزمخشري قوله في (الاستئناف البياني)، يقول في الآية الكريمة ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣]: «فإن قيل: لِمَ لم يقل: (فسوف تعلمون)؟ أُجيب: بأن إدخال (الفاء) وصل ظاهر عرف موضوع للوصل، وأما حذف الفاء فيجعله جوابًا عن سؤال مقدر، وهو المسمى في علم البيان بـ(الاستئناف البياني)، وتقديره: أنه لما قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ فكأنهم قالوا: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فظهر أن حذف حرف (الفاء) هاهنا أكمل في بيان الفصاحة والتهويل؛ لأنه استئناف»[(١)].

٥- **الإيجاز والإطناب**: والإيجاز: أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة، والإطناب: أداؤه بأكثر منها[(٢)]. فمن الإيجاز الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] وقد أخذ الشربيني عن الزمخشري قوله في تفسيرها: «أي: أردتم القيام إليها، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨]، عبَّر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها، للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة»[(٣)].

ومن الإطناب الآية الكريمة ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ۖ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]، وقد نقل الشربيني قول الزمخشري في تفسير الآية الكريمة «وقال الزمخشري: . . . هذا الكلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل، لغرض المبالغة في نفي الولد، والإطناب فيه، وأن لا يترك الناطق به شبهه إلا مضمحلة، مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، ذلك أنه علق العبادة بكينونة

---

(١) السراج المنير (٢/ ٧٦)، وينظر: الكشاف (٢/ ٢٨٩-٢٩٠) طبعة الحلبي.

(٢) ينظر: التلخيص ٢٠٩-٢١٠، التعريفات ٥١، ٦٥ .

(٣) السراج المنير (١/ ٣٥٧)، وينظر: الكشاف (١/ ٥٩٦) طبعة الحلبي.

الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالًا مثلها، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة، وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها..، وقد تمحل الناس بما أخرجوه (به)[1] من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد، المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه. اهـ»[2].

وقد يجتمع التفصيل والإجمال في كلام واحد، كما في الآية الكريمة ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٧، ١٨]، يقول الشربيني: «لما سأل تعالى موسى عليه السلام عن ذلك، أجاب بأربعة أشياء: ثلاثة على التفصيل، وواحدة على الإجمال، أولها: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، ثانيها قوله: (أتوكأ عليها﴾، وثالثها قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، ورابعها قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾»[3].

٦- التكرير: يرى الشربيني أن «كل تكرير جاء في القرآن فمطلوبٌ به تمكين المكرر في النفوس وتقريره»[4]، يقول في الآية الكريمة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣]: «كرَّر هذه الآية في هذه السورة في أحدٍ وثلاثين موضعًا، تقريرًا للنعمة وتأكيدًا في التذكير، وفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها، ليفهمهم النعم ويقررهم بها، كما تقول لمن تتابع عليه إحسانك وهو يكفره وينكره: (ألم تكن فقيرًا فأغنيتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملًا فعززتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلًا فحملتك، أفتنكر هذا؟) والتكرير حسنٌ في مثل هذا، قال القائل:

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم[5]

---

(١) ما بين القوسين مأخوذ من نص الزمخشري في «الكشاف» وهو ما يقتضيه السياق.
(٢) السراج المنير (٣/ ٥٧٦)، وينظر: الكشاف (٣/ ٤٩٧) طبعة الحلبي.
(٣) ينظر: السراج المنير (٢/ ٤٥٥)، الكشاف (٢/ ٥٣٣-٥٣٤).
(٤) ينظر: السراج المنير (١/ ١٥)، الكشاف (٤/ ٤٤).
(٥) لم أجد هذا الشاهد في «معجم شواهد العربية».

وقال آخر:

لا تقتلي مسلمًا إن كنت مسلمة إياك من دمه إياك اياك[١]

وقال آخر:

لا تقطعن الصديق ما طرفت عيناك من قول كاشح أشرْ
ولا تملنَّ يومًا زيارته زُرْه وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرْ[٢]

وقال الحسن بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، وتأكيد للحجة... وذهب ابن قتيبة[٣] إلى أن التكرير لاختلاف النعم، فلذلك كرر التوقيف مع كل واحدة»[٤]، وكذلك هي الغاية من تكرير القصص في القرآن الكريم عند الشربيني، يقول: «إن في التكرير تقريرًا للمعاني في الأنفس، وتثبيتًا لها في الصدور، ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا بترديد ما يراد حفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان، ولأن هذه القصص طرُقت بها آذان (وُقِرْنَ عَنِ)[٥] الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، ورُجعت بالترديد والتكرير، لعل ذلك يفتح آذانًا، أو يشق ذهنًا، أو يصقل عقلًا طال عهده بالصقلِ، أو يجلو فهمًا قد غطى عليه تراكم الصدا»[٦].

وذكر الشربيني للتكرير في القرآن الكريم معاني أخرى منها: التنبيه على الاتصاف بكل واحدة من الصفات المذكورة بعد الاسم المكرر، فقد أخذ عن

---

(١) لم أجد هذا الشاهد في «معجم شواهد العربية».

(٢) لم أجد هذا الشاهد في «معجم شواهد العربية».

(٣) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٢٣٥-٢٣٦ .

(٤) السراج المنير (٤/ ٦٠-١٦١).

(٥) في الأصل المطبوع (وقر عن)، وما أثبته هو ما يقتضيه السياق.

(٦) المصدر نفسه (٣/ ٣٣)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (١/ ٣٩٦)، (٢/ ٦٢-٦٣، ٣١٨، ٣٨٤).

الزمخشري قوله في الآية الكريمة ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٥]: «كُرِّرَ فيه اسم الإشارة تنبيهًا على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضي كل واحد من الاختصاصين، وأن كلًّا منهما كان في تميزهم بها عن غيرهم، فلا يحتاجون فيه إلى مجموعهما»[١].

ومنها أيضًا: الاستمرارية[٢]، والمبالغة[٣]، والتنبيه[٤]، والاستعطاف[٥]، والشفقة[٦]، والتوبيخ[٧].

٧- التقديم والتأخير: وهو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى كلامًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولَطُف عندك، أن قُدِّمَ فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكان[٨].

وللتقديم في القرآن الكريم أغراض بلاغية، وذكر منها الشربيني:

(أ) التعظيم والاهتمام والدلالة على الحصر: يقول في الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]: «فإن قيل: لم قُدِّمَ المفعول؟ أُجيب: بأن تقديمه للتعظيم والاهتمام والدلالة على الحصر»[٩].

---

(١) السراج المنير (١/ ١٩)، وينظر: الكشاف (١/ ١٤٥) طبعة الحلبي.
(٢) ينظر: المصدر نفسه (١/ ١٥٨).
(٣) ينظر: المصدر نفسه (١/ ٢٧٦).
(٤) ينظر: المصدر نفسه (٢/ ٣٠٧).
(٥) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ٥٩٤).
(٦) ينظر: المصدر نفسه (٤/ ٦٠).
(٧) ينظر: المصدر نفسه (١/ ٢٣٥).
(٨) ينظر: دلائل الإعجاز ١٤٢، البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٣٣)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (٢/ ٣٢٥).
(٩) السراج المنير (١/ ١١)، وينظر: الكشاف (١/ ٦١-٦٢).

(ب) الاختصاص: يقول في الآية الكريمة ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٧]: «وتقديم المفعول به للاختصاص، كأنه قيل: وخصُّوا أنفسهم بالظلم، لم يتعداها إلى غيرها»(١).

(ج) الملائمة والترتيب: يقول في الآية الكريمة ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]: «قُدِّمَ (العزيز) لأن العزة تلائم الوحدانية، والحكمة تلائم القيام بالقسط، فأُتي بهما لتقرير الأمرين على ترتيب ذكرهما»(٢).

(د) التفضيل: يقول في الآية الكريمة ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤]: «فإن قيل: لم قُدِّمَ المُنَزَّلُ عليه على المُنَزَّلِ على سائر الرسل؟ أُجيب: أنه إنما قُدم لأن المُنَزَّلُ عليه هو المُعرِّفُ للمُنَزَّلِ على سائر الرسل ولأنه أفضل الكتب المنزلة»(٣).

(هـ) الحث على أمر والحض على القيام به حذرًا من التهاون به: يقول في الآية الكريمة ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]: «فإن قيل: لم قُدِّمت (الوصية) في الذكر على (الدَّين)، مع أنها متأخرة في حكم الشرع عنه؟ أُجيب: بأنها لما كانت شاقة على الورثة، لكونها مأخوذةً بلا عوضٍ، وهي مستحبةٌ لكل مُكلف، وبخلاف (الدَّيْن) فإنه لا يكون على كل مُكلفٍ، فقُدِّمت»(٤).

---

(١) السراج المنير (١/ ٥٣٧)، وينظر: الكشاف ٢/ ١٣١، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/ ٤٤٠)، (٣/ ١٨٨)، (٤/ ٥٦٠).

(٢) السراج المنير (١/ ٢٠٣).

(٣) السراج المنير (١/ ٢٢٩).

(٤) السراج المنير (١/ ٢٨٦).

(و) الاهتمام: يقول في الآية الكريمة ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ٩-١١]: «فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى أخَّر حق نفسه عن حق اليتيم والسائل؟ أُجيب بـ: كأنه يقول: أنا أغنى الأغنياء، وهما محتجان، وحق المحتاج أولى بالتقديم»[(١)].

وإضافة إلى هذه المعاني ذكر: السببية[(٢)]، والتدني من الأعلى إلى الأدنى[(٣)]، والترقي من الأدنى إلى الأعلى[(٤)]، والسَّبْقَ[(٥)].

(١) السراج المنير (٤/ ٥٥٤).
(٢) ينظر: المصدر نفسه (٢/ ٦١٥).
(٣) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ٢٦٨).
(٤) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ٢٧٨).
(٥) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ٢٧٨).

obeikandl.com

المبحث الثاني
علم البيان

معنى البيان لغة: إظهار المقصود بأبلغ لفظٍ، وأصله: الكشف والظهور[١].
ومعنى (علم البيان) اصطلاحًا: «معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»[٢].

والموضوعات التي تناولها الشربيني، ولها تعلق بعلم البيان، يمكن تصنيفها على النحو الآتي:

أولًا: المجاز: ومعناه لغةً مأخوذ من (جازَ الموضِعَ، يجُوزُهُ) إذا تعداه وعَبَرَ عليه، و(تجاوز بهم الطريق، وجاوزه جوازًا): خلَّفه[٣]، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ومعناه اصطلاحًا: أن تذكر الكلمة وأنت لا تريد معناه الحقيقي، الذي وُضِعت له في أصل اللغة، ولكن تجاوزته إلى غيره، لمناسبةٍ بينهما[٤].

وقد انقسم المشتغلون بعلوم القرآن وتفسيره، في شأن اشتمال القرآن على المجاز إلى ثلاث فئات: فئة أولى أنكرت وجوده فيه، لأنها نظرت إلى (المجاز) على أنه عكس (الحقيقة). وفئة ثانية: أسرفت في قولها بوجود المجاز فيه. وفئة ثالثة هي أكثرهم لم تُنكِر وجود المجاز في القرآن، لأنه نزل بلغة العرب،

---

(١) ينظر: لسان العرب (بين).
(٢) مفتاح العلوم ٧٧، وينظر: فنون بلاغية ١١-٢٦ .
(٣) ينظر: لسان العرب (جوز).
(٤) ينظر: دلائل الإعجاز ٢٨٦، التعريفات ٢٥٦ .

وخاطبهم بما اعتادوه وألفوه من أساليب الكلام، ومنها المجاز، ولكنها فئة مُقتصدة، لم تُسرِفْ في القول بوجود المجاز في القرآن[١].

ومن خلال تتبع أقوال الشربيني وآرائه في تفسيره، نستطيع القول: إنه من (الفئة الثالثة)، فقد قال بوجود المجاز في القرآن الكريم، ولكنه لم يسرف فيه، وما أورده من مجاز نستطيع أن نصنفه على النحو الآتي:

١- المجاز في التركيب: أو ما يسمى بـ(المجاز العقلي)، والمجاز فيه لا يكون في ذوات الكلِم وأنفُسِ الألفاظ، ولكن في إسنادها إلى غيرها[٢]، وذلك بأن يسند الفعل أو شبهه إلى غيرها ما هو له أصالةً[٣].

وهذا الضرب من المجاز، على حدته، كنزٌ من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، في الإبداع والإحسان، والاتساع في طريق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعًا مصنوعًا، وأن يضعه بعيد المرام، قريبًا من الأفهام[٤]، ومن علاقاته:

(أ) الإسناد إلى ما ليس بفاعل حقيقي: يقول في الآية الكريمة ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١]: «من الإسناد المجازي، وإقامة القابل، وهي (الأرض) لأنها قابلة للنبات، مقام الفاعل»[٥].

(ب) إسناد ما بُنِيَ للفاعل إلى المفعول: يقول في الآية الكريمة ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ

---

(١) ينظر: أساليب المجاز في القرآن الكريم ٩٦-١٠٦ (أطروحة دكتوراه).
(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ٢٨٦ .
(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٧٧)، معترك الأقران (١/ ١٨٦)، الإيضاح (٢/ ٣٠٤)، علوم البلاغة ٢٧٠، التعريفات ٢٥٦-٢٥٧ .
(٤) ينظر: دلائل الإعجاز ٢٨٧-٢٩٣ .
(٥) السراج المنير (١/ ٦٤).

دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطلاق: ٦]: «أي: مدفوق، (فاعل) بمعنى (مفعول)، كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]»[١].

٢- المجاز في اللفظ: أو ما يسمى بـ(المجاز اللغوي)، وهو استعمال الكلمة المفردة في غير ما وُضِعت له في أصل اللغة [٢]، ومن علاقاته:

(أ) مجازُ حذف المضاف: وهو ما حُذف منه (المضاف)، وأُقيم (المضاف إليه) مقامه[٣]، ويسمى أيضًا (إطلاق لفظ المحلِّ وإرادة الحال)، يقول في الآية الكريمة ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]: «أي: أهلها، على حذف المضاف، وهو مجاز مشهور وقيل: إنه مجاز، ولكنه من (إطلاق المحلِّ وإرادة الحال)»[٤].

وقد أنكر بعض العلماء وجود المجاز بالحذف، لأن المجاز استعمال اللفظ في غير موضعه، والحذف ليس كذلك[٥]، ومن الذين قالوا به وأثبتوه الإمام عبد القاهر الجرجاني[٦].

(ب) تسمية الشيء بما يئول إليه: يقول في الآية الكريمة ﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١]: «مجاز باعتبار المآل، أي: لا تفعلوا ما يؤدي إلى الفساد. وليس معنى (الإفساد) هنا الإتيان بالفساد، ليصح حمل الكلام على الحقيقة»[٧].

---

(١) السراج المنير (٤/٥١٧).

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٢٨٦، ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/٧٨)، معترك الأقران (١/ ١٨٧)، الإيضاح (٢/٢٧٠)، علوم البلاغة ٢٢٨، التعريفات ٢٥٧ .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز ٢٩٢ .

(٤) السراج المنير (٢/٢٢٩)، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/٢٣).

(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/٧٨)، معترك الأقران (١/١٨٧).

(٦) ينظر: أسرار البلاغة ٣٦٢، دلائل الإعجاز ٢٩٢ .

(٧) السراج المنير (١/٢٤)، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (٢/١٠٧).

(ج) تسمية الكل باسم البعض أو الجزء: يقول في الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤]: «عَبَّرَ عنه بلفظ المضي، وإن كان بعضه مترقَّبًا، تغليبًا للموجود على ما لم يوجد، فيكون مجازًا باعتبار تسمية الكل باسم البعض، أو تنزيلًا للمنتظر منزلة الواقع. . .»[(١)]، ويقول في الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات: ٤٨]: «أي: صلوا الصلاة التي فيها الركوع. . وأطلقوه عليها تسميةً لها باسم جزئها، وخُصَّ هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة، ولأنه خاصٌّ بصلاة المسلمين»[(٢)].

ويقول في الآية الكريمة ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]: «جعِل (اليد) التي هي حقيقة (إلى المنكب) مجازًا (إلى المرفق)، مع جعل (إلى) غاية للغسل الداخلة هنا في المُغيَّا[(٣)]، بقرينة الإجماع والاحتياط للعبادة، والمعنى: اغسلوا أيديكم من رءوس الأصابع إلى المرافق. أو تجعل باقية على حقيقتها إلى المنكب، مع جعل (إلى) غاية للترك المقدّر، فتخرج الغاية، والمعنى: اغسلوا أيديكم، واتركوا منها إلى المرافق»[(٤)].

ثانيًا: **الاستعارة**: وهي لغة مأخوذة من (العاريَّة) -بالتشديد- وهي: المَنِيحَةُ[(٥)]، و(استعارَ): طَلَبَ العاريَّة، و(استعارَهُ الشيء) و(استعارَهُ منه): طلب منه أن يُعيره إياه[(٦)]، ومعناها اصطلاحًا: «أن تذكر أحد طرفي التشبيه،

---

(١) السراج المنير (١/١٩).

(٢) السراج المنير (٤/٤٦٧).

(٣) المغيا: بضم الميم وتشديد الياء، ما وضعت الغاية له، نحو غسل اليدين إلى المرفقين، فالمرفقان غاية، والغسل (مغيا). ينظر: معجم لغة الفقهاء ٤٤٤ .

(٤) السراج المنير (١/٣٥٧)، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير ٢٩، ٣٢٨، ٦٠٩، (٢/ ٥٤١).

(٥) ينظر: لسان العرب (عَير)، والأصل في (المَنِيحَة) أن يجعل الرجلُ لبن شاته أو ناقته لآخر سنةً، ثم جعلت كل عطيةٍ مَنِيحَة، ينظر: لسان العرب (منح).

(٦) ينظر: لسان العرب (عور).

وتريد به الطرف الآخر، مدَّعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالًّا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به»[١].

وقد نهج الشربيني نهج الزمخشري في بيان ما اشتمل عليه الكتاب العزيز من بديع الاستعارة ونادرها، ومن ذلك قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢]: «استعير (الذوق) لإدراك أثر الضرر، و(اللباس) لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه، على (لباس الجوع والخوف)، بالنظر إلى المستعار له، كقول كثير عزة:

غَمْرُ الرداء إذا تبسَّم ضاحكًا غلقَتْ لضحكته رقاب المال[٢]

فإنه استعار (الرداء) للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه، صون الرداء لما يلقى عليه، وأضاف إليه (الغمر) الذي هو وصف المعروف والنوال، لا وصف الرداء، نظرًا إلى المستعار له، ولو نظر إلى المستعار لقال: (ضافي الرداء) أي: سابغه، ومعنى البيت: إذا ضحك المسئول ضحكة أيقن السائل بذلك التبسم استرقاق ماله وأنه يعطي بلا خلاف. وقد نظر إلى المستعار كقوله:

ينازعني ردائي عبد عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لي الشطر الذي ملكت يميني ودونك فاعتجر منه بشطر[٣]

استعار (الرداء) للسيف، ثم قال: (فاعتجر) نظرًا إلى المستعار، ولو نظر إلى (المستعار منه) لقال تعالى في الآية الكريمة: (وكساهم لباس الجوع والخوف) ولقال كثير: (ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكًا)، وهذه نهاية ما يقال في الاستعارة»[٤].

---

(١) مفتاح العلوم ١٧٤، وينظر: أسرار البلاغة ١٥، فنون بلاغية ١٢٣-١٢٨.

(٢) البيت من الكامل، ورد في الخصائص (٢/ ٤٤٧)، الإيضاح ٣٠٠، لسان العرب (غمر) ديوانه ٢٨٨.

(٣) لم أجد هذا الشاهد في «معجم شواهد العربية» ولا في كتب تخريج الشعر.

(٤) السراج المنير (٢/ ٢٦٥-٢٦٦)، وينظر: الكشاف (٢/ ٤٣١-٤٣٢) طبعة الحلبي.

ويقول في الآية الكريمة ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣]: «أي: بدينه، وهو دين الإسلام، استعار له (الحبل) من حيث التمسك به سبب النجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردي»(١).

وتناول أيضًا الاستعارة التخييلية(٢)، والتبعية(٣)، والتصريحية(٤)، والمكنية(٥).

ثالثًا: التشبيه: ومعناه لغةً: التمثيلُ، و(شَبَّهَهُ به): مَثَّلَهُ(٦). ومعناه اصطلاحًا: «الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى»(٧).

وقد تتبع الشربيني التشبيهات القرآنية، وبيَّن ما فيها من روعة بيانٍ، يقول في الآية الكريمة ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]: «إنما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة؛ لأن الحديد قابل للين، فإنه يلين بالنار، وقد لان لداود عليه السلام، والحجارة لا تلين قط»(٨)، ويقول في الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور: ٣٩]: «وجه التشبيه أن الذي جاء به الكافر، إن كان من أفعال البر، فهو لا يستحق عليه ثوابًا، مع أنه يعتقد أن له ثوابًا عليه، وإن كان من أفعال الإثم، فهو يستحق عليه العقاب، مع أنه يعتقد أن له ثوابًا، فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابًا عند الله تعالى، فإذا وافى عرصة القيامة، ولم يجد

---

(١) السراج المنير (١/ ٢٣٧)، وينظر: الكشاف (١/ ٤٥٠-٤٥١) طبعة الحلبي.
(٢) ينظر: المصدر نفسه (٢/ ٢٩٧).
(٣) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ٢٤٩).
(٤) ينظر: المصدر نفسه (١/ ٥٢٠).
(٥) ينظر: المصدر نفسه (١/ ٣٦٤، ٤٣٩).
(٦) ينظر: لسان العرب (شبه).
(٧) الإيضاح ٢١٣، وينظر: فنون البلاغة ٣٠-٣٣، التعريفات ٨٥-٨٦ .
(٨) السراج المنير (١/ ٧١).

الثواب، بل وجد العقاب العظيم، عظمت حسرته، وتناهى غمه، فيشبه حاله حال الظمآن الذي اشتدت حاجته إلى الماء، فإذا شاهد السراب في البر تعلق به قلبه، فإذا (جاءه)[١] لم يجده شيئًا، فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه، فإذا احتاج إلى عمله لم يجده شيئًا، ولا ينفعه»[٢].

ويقول في الآية الكريمة ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور: ٣٥]: «فإن قيل: لم شُبِّهَ بالكوكب ولم يُشَبَّه بالشمس والقمر؟ أُجيب: بأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف، والكواكب لا يلحقهما ذلك»[٣].

ومن صور التشبيه التي التفت إليها الشربيني: (التشبيه البليغ)، وهو التشبيه الذي تحذف منه أداة التشبيه ووجد الشبه معًا[٤]، يقول في الآية الكريمة ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣]: «﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ المعنى: أنهم متفاوتون في الجزاء على كسبهم، كما أن الدرجات متفاوتة، فهو تشبيه بليغ بحذف الأداة، أي: هم مثل الدرجات في التفاوت»[٥].

كما التفت إلى (التشبيه المعكوس)، أو (المقلوب)، وهو الذي يجعل فيه المشبه به مشبهًا[٦]، يقول في الآية الكريمة ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥]: «هذا من عكس التشبيه مبالغةً، إذ به صار المشبه مشبهًا به، وبالعكس وشأن المشبه به أن يكون أقوى من المشبه»[٧].

---

(١) في المطبوع (جاء له)، وما أثبتُّه هو عبارة القرآن الكريم.

(٢) السراج المنير (٢/ ٦٢٦-٦٢٧).

(٣) السراج المنير (٢/ ٦٢٣).

(٤) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢/ ١٨٠).

(٥) السراج المنير (١/ ٢٦٢).

(٦) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢/ ٢٠٧).

(٧) السراج المنير (١/ ١٨٤).

رابعًا: الكناية والتعريض:

١- الكناية: ومعناها لغةً: أن تتكلم بشيء وتريد غيره، و(كَنَى عن الأمر): إذا تكلم بغيره مما يُستدل به عليه، نحو (الرفث) و(الغائط). وتُستعمل الكناية على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يُكْنَى عن الشيء الذي يُستفحش ذِكْرُهُ.

والثاني: أن يُكنى الرجل باسم ولده توقيرًا وتعظيمًا.

والثالث: أن تقوم الكُنية مقام الاسم، فيعرف صاحبها بها، كما يعرف باسمه، كأبي لهب، اسمه (عبد العزى)، عُرِف بكنيته، فسماه الله بها[١].

ومعناها اصطلاحًا: «أن يُعَبِّرَ عن شيءٍ، لفظًا كان أو معنًى، بلفظٍ غير صريح في الدلالة عليه، لغرض من الأغراض، كالإبهام على السامع، نحو (جاء فلان)، أو لنوع فصاحة، نحو: (فلان كثير الرماد) أي: كثير القِرَى»[٢].

وقد وقف الشربيني على (الكناية) في الكتاب العزيز، وبيَّن دلالات ألفاظها، ومن ذلك قوله في الآية الكريمة ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]: «أي: يوم القيامة، لأن هذه الدنيا كلها كيوم واحد يجيء فيه ناس ويذهب آخرون، والموت والآخرة لا بد من كل منهما، وكل ما لا بد منه فهو غاية القرب، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد»[٣].

٢- التعريض: ومعناه لغة: خِلافُ التصريح، و(المعاريض): التورية

---

(١) ينظر: لسان العرب (كنى).

(٢) التعريفات ٢٣٨، وينظر: الإيضاح (٢/ ٣١٨)، التلخيص ٣٣٧، كتاب الصناعتين ٣٦٨.

(٣) السراج المنير (٤/ ٢٥٦)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (٢/ ١٥٥)، (٣/ ١٧١، ٥٢٥).

بالشيء عن الشيء[١]، ومعناه اصطلاحًا: «ما يُفهِمُ به السامع مراده من غير تصريح»[٢].

وقرن البلاغيون (التعريض) بـ(الكناية)؛ لأنهم جعلوه قسمًا من أقسامها[٣]، وقد بيَّن الشربيني ما في الآيات من تعريض، يقول في الآية الكريمة ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]: «تعريض للمؤمنين، لتحملهم المشاق لوجه الله تعالى بما فعلوا من بذل أنفسهم وأموالهم، وإيثارهم ذلك على السكون والراحة، وكره ذلك المنافقون، وكيف لا يكرهون وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان»[٤]، ويقول في الآية الكريمة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]: «دليل على أن الأولى له أن لا يفعل، كما أنك إذا قلت للمريض: (إن كنتَ تأكل الفاكهة فكُلْ التفاح)، كأن معناه: أن الأولى بك أن لا تأكله، فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض أن الأولى تركه، ثم انتقل الله عز وجل من التعريض إلى التصريح بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام، لأن الرحمة أفضل من القسوة، (والصبر)[٥] أفضل من الانتقام»[٦].

---

(١) ينظر: لسان العرب (عرض).
(٢) التعريفات ٩١ .
(٣) ينظر: فنون بلاغية ١٨٢-١٨٣ .
(٤) السراج المنير (١/ ٦٣٧).
(٥) في السراج المنير (الانتفاع) وما أثبته هو ما يقتضيه السياق.
(٦) السراج المنير (٢/ ٢٧٢).

المبحث الثالث
علم البديع والإعجاز العلمي للقرآن الكريم

أولًا: علم البديع:

معنى (البديع) لغةً: المُحْدَث العجيب، و(البَديعُ): المُبْدِعُ، و(أبدعت الشيء): اخترعته لا على مثال، و(البَدِيعُ): من أسماء الله تعالى، لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البَدِيعُ الأول قبل كل شيء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] أي: خالقها ومُبدعها، فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال سابق[١]. ومعنى (علم البديع) اصطلاحًا: «ما يُعرف به وجوه تحسين الكلام»[٢] وتقسم (مُحسِّنات الكلام) إلى (لفظية) و(معنوية)[٣]، ومن المحسنات اللفظية التي ذكرها الشربيني:

١- **الجناس المحرَّف**: وهو الاختلاف في هيئات الحروف[٤]، يقول في الآية الكريمة ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥]: «قوله تعالى: (تفرحون) و(تمرحون) من باب (التجنيس المُحرَّف)، وهو أن يقع الفرق بين اللفظين بحرف»[٥].

٢- **الفواصل** (المحافظة على رءوس الآي): «وهي حروف متشاكلة في المقاطع توجب حس إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك

---

(١) ينظر: لسان العرب (بدع).
(٢) الإيضاح ٣٣٤، وينظر فنون بلاغية ١٩٦-٢١٠ .
(٣) ينظر: فنون بلاغية ٢٠٦ .
(٤) ينظر: الإيضاح (٢/ ٣٨٤)، التلخيص ٣٨٩، معجم المصطلحات البلاغية (٢/ ٨١).
(٥) السراج المنير (٣/ ٤٩٧).

أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها»[١]، يقول الشربيني في الآية الكريمة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]: «تقديم (رزقناهم) على (ينفقون) للاهتمام به، وللمحافظة على رءوس الآي»[٢]، ويقول في الآية الكريمة ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]: «(تبتيلًا) مصدر (تبتل)، جيء به رعاية للفواصل، وهو ملزوم (التبتل)، قال الزمخشري: فإن قلت: كيف قيل: (تبتيلًا) مكان (تبتلًا)؟ قلت: لأن معنى (التبتل): بَتِّلْ (نفسك)[٣]، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل»[٤].

ومن المحسنات المعنوية التي ذكرها الشربيني:

١- **الالتفات:** وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، تطرية واستدرارًا للسامع، وتجديدًا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر، بدوام أسلوب واحد على سمعه[٥].

والسكاكي ذكر (الالتفات) مرتين في (علم المعاني)[٦]، ومرة في (علم البديع)[٧]. وأما القزويني فقد جعله في (علم المعاني)[٨]. والراجح أنه من موضوعات (علم البديع)، لا من (أحوال الجملة) التي هي من موضوعات

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ٨٩، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣/ ١٢٩-١٣١).

(٢) السراج المنير (١/ ١٨).

(٣) هكذا هي في نص الزمخشري، وفي نص السراج المنير (نفسه).

(٤) السراج المنير (٤/ ٤١٧)، وينظر كذلك: الكشاف (٤/ ١٧٧) طبعة الحلبي.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤)، الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٨٤)، معترك الأقران (١/ ٢٨٦).

(٦) ينظر: مفتاح العلوم ٩٥، ١١٨ .

(٧) ينظر: المصدر نفسه ٢٠٢ .

(٨) ينظر: الإيضاح (١/ ٧١-٧٥).

(علم المعاني)، ولذلك جعله أبو هلال العسكري[١]، والزركشي[٢]، وجلال الدين السيوطي[٣] في (علم البديع)، وعدَّه ابن جني من (شجاعة العربية)[٤].

وقد بيَّن الشربيني الأسباب التي تقود إلى الالتفات، واستقصى أقسامه، يقول في الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]: «لِمَ عدلَ عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ أُجيب: بأن عادة العرب التفنن في الكلام، والعدول عن أسلوب إلى آخر، تحسينًا للكلام، وتنشيطًا للسامع، فيكون أكثر إصغاءً للكلام، فتعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، وبالعكس فيهما، فهذه أقسام أربعة ذكرها البيضاوي[٥]. والتحقيق، كما قاله بعض المتأخرين، أنها ستة، لأن المُلتفت إليه اثنان، وكلٌّ منهما غيبة أو خطاب أو تكلم، من ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، الأصل (بكم)، فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ [فاطر: ٩]، الأصل (فساقه)، فهو التفات من الغيبة إلى المتكلم»[٦].

والالتفات يكون لأسباب، فصَّلَ الشربيني القول فيها، يقول في الآية الكريمة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١]: «أقبل تعالى عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، تحريكًا للسامع وتنشيطًا له، واهتمامًا بأمر العبادة، وتفخيمًا لشأنها، وجبرًا لمشقة العبادة بلذة المخاطبة»[٧]،

---

(١) ينظر: كتاب الصناعتين ٣٩٢ .
(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤).
(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٨٤)، معترك الأقران (١/ ٢٨٦).
(٤) ينظر: الخصائص (٢/ ٣٦٠).
(٥) ينظر: أنوار التنزيل ٤، الكشاف (١/ ١٣-١٤) طبعة دار الكتاب العربي.
(٦) السراج المنير (١/ ١٠-١١).
(٧) السراج المنير (١/ ٣١).

ويقول في الآية الكريمة ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: ٢٢]: «أصله (ولما لكم لا تعبدون)، ولكنه صرف الكلام عنه، ليكون الكلام أسرع قبولًا، حيث أراد لهم ما أراد لنفسه، والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، دون (وإليه أرجع)، مبالغة في التهديد، وفي العدول عن مخاصمة القوم إلى حال نفسه مبالغة في الحكمة، وهي أنه لو قال: (ما لكم لا تعبدون الذي فطركم) لم يكن في البيان مثل قوله: (ما لي)، فلا أحد يخفى عليه حال نفسه»[(١)].

٢- الاستدراج: وعده الزمخشري من (التعريض والتورية)، وهو أسلوب من أساليب الجدال، يكون «أنضل[(٢)] بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم، وفَلِّ شوكته بالهوينا»[(٣)]، يقول الشربيني في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ من الآية الكريمة: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]: «إنما هذا الكلام جارٍ على ما تخاطب به العرب من استعمال الإنصاف في محاوراتهم، على سبيل الفرض والتقدير، ويسميه أهل البيان (الاستدراج)، وهو أن يذكر لمخاطبه أمرًا يُسَلِّم به، وإن كان بخلاف ما يذكر حتى يصغي إلى ما يلقيه إليه، إذ لو بدأه بما يكره لم يصغ، ونظيره قولهم: (أخزى الله الكاذب مني ومنك)، ومثله قول حسان رضي الله عنه يريد الرسول ﷺ وأبا سفيان.

---

(١) السراج المنير (٣/ ٣٤٥)، وينظر: الكشاف (٣/ ٣١٩) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/ ٧٤، ٦٣٠)، (٢/ ٢١٢، ٣٢١)، (٣/ ١٨٣، ٤٥٥)، (٤/ ١٠٩، ٤٤٥).

(٢) أنضل؛ أي: أسبق.

(٣) الكشاف (٣/ ٢٨٩) طبعة الحلبي.

أتهجوه ولست له بكفءٍ فشركما لخيركما الفداء[١]

مع العلم لكلٍّ أحد أنه ﷺ خير خلق الله كلهم[٢].

٣- **الازدواج أو المزاوجة**: وهو أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء، أو ما جرى مجراهما[٣]، يقول الشربيني في الآية الكريمة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]: «معناه: أنهم تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسي، فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته، وجاء هذا على مزاوجة الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]»[٤].

وبعد، فهذه موضوعات من (علم البديع) قطفتها من تفسير (السراج المنير)، من بين موضوعات أخرى، كاللفّ والنشر[٥]، والمشاكلة[٦]، والمطابقة[٧]، والمقابلة[٨]، وطي الذكر[٩]، وغيرها.

وقد يجمع الشربيني بين (المعاني) و(البيان) و(البديع) في تحليل النص القرآني، لبيان ما فيه من بلاغة وإعجاز، يقول في سورة (الكوثر): «قد احتوت هذه السورة، على قصرها، على معانٍ بليغة وأساليب بديعة، ومنها: دلالة استهلال السورة على أنه تعالى أعطاه كثيرًا من كثير، ومنها إسناد الفعل إلى

---

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري (١/ ١٨).

(٢) ينظر: السراج المنير (٣/ ٢٩٧).

(٣) ينظر: الإتقان (٢/ ٢٠٣)، معترك الأقران (١/ ٣١٢)، كتاب الصناعتين ٢٦٠، معجم المصطلحات البلاغية (١/ ٩٧).

(٤) السراج المنير (١/ ٦٢٩).

(٥) ينظر: المصدر نفسه (١/ ٨٦).

(٦) ينظر: المصدر نفسه (١/ ١٢٧)، (٣/ ١٢).

(٧) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ٣٠٢)، (٤/ ١٣٨).

(٨) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ٤٩٠-٤٩١).

(٩) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ٤٦٥).

المتكلم المعظم نفسه، ومنها إيراده بصيغة الماضي تحقيقًا لوقوعه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ومنها تأكيد الجملة بإن، ومنها بناء الفعل على الاسم ليفيد الإسناد مرتين، ومنها الإتيان بصيغة تدل على المبالغة في الكثرة، ومنها حذف الموصوف بالكوثر لأن في حذفه من فرط الشياع والإبهام ما ليس في إثباته، ومنها فاء التعقيب الدالة على السبب، فإن الإنعام سبب للشكر والعبادة، ومنها التعريض بمن كانت صلاته ونحره لغير الله تعالى، ومنها أن الأمر بالصلاة إشارة إلى الأعمال البدنية التي النحر أسناها، ومنها حذف متعلق (انحر)، إذ التقرير: فصَلِّ لربِّك وانحر له، ومنها مراعاة السجع، فإنه من صناعة البديع العاري عن التكلف، ومنها قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾، وفي الإتيان بهذه الصفة دون سائر صفاته الحسنى دلالة على أنه المربي له والمصلح بنعمه، فلا يلتمس كل خير إلا منه، ومنها الالتفات من ضمير المتكلم إلى الغائب في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾، ومنها الأمر بترك الاهتمام بشانئه، للاستئناف، وجعله خاتمة للإعراض عن الشانئ، ولم يسمه ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة القبيحة، ولو كان المراد شخصًا معينًا لعينه الله تعالى، ومنها التنبيه بذكر هذه الصفة القبيحة على أنه لم يتصف إلا بمجرد قيام الصفة به، من غير أن تؤثر فيمن يشنؤه شيئًا البتة، لأن من يشنأ شخصًا قد يؤثر فيه شنؤه شيئًا، ومنها تأكيد الجملة بـ(أنَّ) المؤذنة بتأكيد الخبر، ولذلك يتلقى بها القسم، وتقدير القسم يصلح هنا، ومنها الإتيان بضمير الفصل المؤذن بالاختصاص والتأكيد إن جعلنا (هو) فصلًا، وإن جعلناه مبتدأ فكذلك يفيد التاكيد، إذ يصير الإسناد مرتين، ومنها تعريف (الأبتر) بـ(ال) المؤذنة بالخصوصية بهذه الصفة، كأنه قيل: الكامل في هذه الصفة، ومنها إقباله تعالى على رسوله بالخطاب من أول السورة إلى آخرها»[1].

---

(١) ينظر: السراج المنير (٤/٥٩٨).

ثانيًا: الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

وفي مواضع قليلة من تفسيره، تعرض الشربيني لما في القرآن الكريم من إعجاز علمي، يدلل على عظمة الخالق، ويهدي إليه، ففي تفسيره للآية الكريمة ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩] تكلم على عجيب خلق الله في النحل، ومن دقة صنعها لبيوتها، وكيف تجمع الرحيق، وتصنع العسل، وردَّ الرازي فيما ذهب إليه من أن العسل طل ينزل من السماء، ثم يجمعه النحل من رءوس الأشجار والأزهار[1]. وأكد الشربيني أن العسل يكون من رحيق الأزهار، بدليل أننا نجد طعوم تلك الأزهار في العسل[2].

ولكنه في تفسيره لبعض الظواهر الكونية، نقل فيها أقوالًا ذهبت بعيدًا عن التفسير العلمي لها، ومن ذلك قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]: «إن السحاب من شجرة مثمرة في الجنة، والمطر من بحر تحت العرش»[3].

وأخيرًا أقول: فهذا الكتاب العزيز، الذي أبى الله تعالى أن يؤتى بمثله، ولو كان الناس بعضهم لبعض ظهيرًا، كان من إعجازه العَجزُ عن الوقوف على كل أسرار إعجازه؛ لأنه المعجزة الكبرى التي لا تنقضي أسرارها.

---

(١) ينظر: التفسير الكبير (٢٠/ ٧١).

(٢) ينظر السراج المنير (٢/ ٢٤٤-٢٤٦)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (١/ ٢٨، ١٠٩)، (٢/ ١٤٥، ٤٢٩)، (٣/ ١٦١-١٦٥، ٣٦٦)، (٤/ ٨٠، ٤٩٣).

(٣) السراج المنير (١/ ١٠٩)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (١/ ٣٣).